"حلّاق القرية"

إذا كنّا قد تحدثنا في مدونتنا السّابقة؛ في الأسبوع الماضي، عن موضوع الصّراحة، وبما أنه قد أصبح بيننا صراحة واعترافات متبادلة، اسمحوا لي أن استمر بنهجي الذي اتبعته مؤخرًا، قبل أن نعود ونتقوقع وننطوي ثانيةً، كلٌ في زاويته، أو كنبته في صالون بيته.

هل تشعرون مثلي، أحيانًا، اننا بحاجة لأن نفضفض لأحدهم؟! على الأغلب شخص ليس من دائرتنا القريبة، يعني ليس زوجًا، أو زوجة، أو أخ، أو أب وغيرهم من الأقارب. نحتاج أن نفضفض لشخص لا يُصدر الأحكام علينا، أو يصدرها دون معرفتنا، نفعل ذلك للحظة وننسى أننا كُنّا بهذا الموقف، كأننا نرى فيلمًا ممتعًا أو نقرأ كتابًا مُثيرًا، وننسى أننا فعلنا ذلك، ونستمر بحياتنا اليوميّة كأن شيئًا لم يحدث.

نحن شعب لا يتوجه إلى الأطباء النفسيين وذلك لأسباب كثيرة لسنا بصددها هُنا. لكن يمكنني أن أقول إنه في حالة معرفتنا أنّ شخصًا معيّنًا يراجع طبيبًا نفسيًّا حتى تنقلب حياته رأسًا على عقب، فيُصبح موصومًا بالجنون أو العقد النّفسيّة وغيرها من التقوّلات اللانهائيّة. وإذا فعلها أحدنا فإنه يفعل ذلك بأعلى درجات السّرية.

أذكر أنني أنهيت دراستي الجامعيّة وبدأت مشواري الشّاق بالبحث عن عمل يليق بي، أعيش بواسطته بكرامة واحترام دون الحاجة إلى أحد، بهدف الزّواج وإنشاء

أُسرة كما يفعل كل شاب في مجتمعنا العربيّ المُحافظ، والأهم من كل هذا إرضاء والدي الذي كان سقف توقّعاته عالياً جدًا، فأنا أول أبنائه الذين يدخلون الجامعة ويتخرجون منها.

خلال بحثي المتواصل وفشلي في الحصول على وظيفة في سلك التعليم، بعد إنهائي اللقب الأول، أرسل لي صديق قريب مني إعلانًا عن دورة لتعليم الحلاقة. هذه الدّورة ستقام في القدس الغربية بتكلفة خمسة آلاف شاقل، وهو مبلغ كبير جدًا آنذاك.

اعترف أنني كنت ساذجًا عندما قمت بالاتصال بوالدي عندها، طالبًا رأيه في الموضوع. كمقدمة للطلب الثاني في المرحلة الثانية، وهي طلب النقود لتمويل هذه الدورة، التي ستؤدي بالتالي إلى مهنة مدرّة للأرباح الكبيرة، كما ظننت.

ذُهلت من ردة فعل والدي الذي قال بنبرة حادّة، يخالطها قدر كبير من الحزن والأسى، إذا قال: "بدك تفضحنا؟! شو حلاق؟ هذه مهنة وضيعة، بدك يقولوا ابني حلّاق؟!".

كان الجواب بالنّفي قاطعًا وبنبرة لا جدال فيها. ها هي أحلامي بأن أُصبح حلّاقًا تتلاشى هباءً منثورًا أمام موقف والدي الحازم، لتُضاف إلى أحلام أخرى تلاشت أمام طلباته القاطعة بأن أعمل في سلك التّعليم، الذي كان المفر الوحيد أمام الخريج العربي في تلك الأيام.

تلاشى حلم الحلاقة، لن أقف أمام زبائني حاملًا مقصّي، حالقًا رأس زبائني بمهارة وحرفيّة عاليّة. طبعًا لم يشفع لي ادعائي ودفاعي أمام والدي أنني لن أكون حلّاق نساء إنّما حلّاق للرّجال، آملًا أن يرق قلب أبي، الذي بادرني بقوله: "انصرف من وجهي وإلّا...".

عُذرًا لحلّاقي، منذ ثلاثين سنة، الحاج صلاح الذي مدَّ وخلال هذه الفترة، التي بها حلقت عنده، مدّ لي اكليل المحبّة، وحادثني بأطايب الموضوعات، وتحملني وتحمل مُزاحي الثّقيل معه.

لم تعد الحلاقة اليوم مهنة عاديّة، بل أصبحت صناعة زاهرة أصّلت أصولها وقعدت قواعدها، وصارت حوانيت الحلّاقين عبارة عن بوتيكات حديثة لتصميم الشعر، مؤثثة بأفخم الأثاث، ومزودة بأجود المكيّفات، ومزيّنة بألمع المصابيح، فأنت تحتاج إلى علاقات جيّدة ووقت غير قصير لحجز دورك، هاتفيًّا، لتحظى بخدمات مميّزة على يد أمهر الحلّاقين.

هل تتصورون حياتكم دون حلّاق!!، هو من يُحسن ديباجة الوجه، ويخفف عن الرأس وطأة الآلام، ويرقّق في الحديث.

يحذق الحلّاق المجاملة، كلما ذهبت إليه يُشعرك أنك أجمل شخص في هذا العالم، وهذا من ديدنه، بل حيلته التجارية وإن كنت أقبح من الجاحظ.

امتاز الحلّاق بالماضي بسعة الثقافة وإن لم يكُن حائزًا على شهادة الدكتوراة من جامعة مُعتبرة. يورد الأمثال والطرائف، يعلّق على الوقائع السياسيّة، يحيكك

نوادر التاريخ، يعرف طبائع النّاس، يُفسح لك مجال الحديث فتبوح إليه ذوات نفسك بما قد لا تبوح به إلى أعز عزيز لك.

ثرثرة الحلّاق التي رافقتنا منذ الطفولة وفي الكتب المدرسيّة الأولى، أُريد بها أن تكون علامة دالّة على مهنة اجتماعيّة متدنيّة بين المهن الشعبيّة اليوميّة.

هل تعلمون أنّ بعض الحلّاقين في الماضي كانوا هدفًا لتجنيدهم في صفوف المُخبرين والعملاء؟!

كل شاردة وواردة يتناقلها السّكان تجد طريقها إلى حلّاقها عبر النقل السّريع ليكون هو الحاضنة اليوميّة لأخبار بني جلدته والحافظة الوحيدة التي تتجمع فيها أخبار الآخرين. لا سيّما إذا عرفنا أنّ القرى القديمة لا تمتلك وسائل الاتصالات الحديثة لذلك صار دكّان الحلّاق بمثابة (وكالة أنباء) تصب فيها كل المعلومات اليوميّة من خير وشر.

وبحكم ثباته المكاني فهو رادار اجتماعي يلتقط الصغيرة والكبيرة في مسارب المجتمع الصّغير، لذا فهو مصدر خطير لجمع المعلومات عن الآخرين وهو مصدر استخباراتي شديد الخصوصيّة والسريّة، فلا بد لمقص الحلّاق أن يتكتك عليها في ثرثرة، تنتج عنها ثرثرة أُخرى مُعلنة على رأس الزّبون وهي ما يميّز الحلّاق عن غيره من ذوي المهن الحرّة... الكلام الكثير.. الثّرثرة.

حلّاق القرية القديم كانت وسائله بدائيّة وكانت الحياة من حوله أكثر بساطة وتكاد تكون تجاربها محدودة كما هي تجارب النّاس، لذلك كان يلجأ إلى الخيال

واستحضار القص الشّعبي من حكايات شهيرة، كسيرة الزّير سالم وعنترة وحكايات الجن والعفاريت وما يحفظه شفاهيًّا من أدبيات ألف ليلة وليلة.

هل تلاحظون أنني لا أتحدث عن الحلاقين في أيامنا هذه؟ نعم أقصد ذلك، فهم يفتقرون إلى كل ما ذكرته أعلاه من مواهب ومعلومات. الأمر أكبر من ذلك فعملية الحلاقة التي كانت يدوية وتستغرق وقتًا طويلًا، بين استراحة للحديث وعودة إلى العمل، أصبحت اليوم تستغرق دقائق معدودة. أصبح الحلّاق صامتًا، يعمل بصورة اوتوماتيكيّة فهو يرغب بإنجاز وإتمام أكبر عدد من الزبائن بأقل وقت ممكن، فلا وقت لديه "للّت والعجن". فالماكينة شغّالة والعداد يعدّ. طبعًا ناهيك عن الأسعار العالية، وقصّات الشّعر الغريبة والموضة الصّاخبة.

وهل يُمكننا أن ننهي "حِلاقتنا" دون طرفة مناسبة للكاتب القصصي المازني:

استدعى جُحا حلاقًا قرويًّا ذاع صيته أنه بليدٌ أحمق. فأراد جحا أن يسخر منه وأن يجعله أضحوكة امام النّاس، رغم تحذير أصدقائه ألّا يفعل. فجاء الحلّاق بعد ساعات يحمل كيسًا كبيرًا أخرج منه مقصًا كبيرًا جدًا فسأله جُحا: هل في القرية فيل؟ فأشار إلى المقص، فقال الحلّاق: "هذا مقص حمير ولا مؤاخذة". ثم أخرج موسًا من طراز المقص. أجلس الحلّاق جُحا على الأرض وجذب رأسه فذعر جُحا ونفر وولّى هاربًا إلى أقصى الغرفة فلحقه الحلّاق وتناول رأسه بين يديه ثم وضع ركبته على فخذه ولف ذراعه حول عنقه فشرع جُحا بالصّراخ وسط ضحكات أصحابه. أهوى الرّجل بموسه على رأس جُحا فسلخ قطعة من جلده وجرحه عدة

جراح. وكان كلّما جرحه وسال دمه، يضع قُطنًا على الجرح. وتكاثرت الجراح وسط صراخ جُحا إلى أن استطاع أن يفلت من قبضة الحلّاق ونهض قائمًا فقال له الحلّاق: اصبر حتى تنتهي فأجابه جُحا: كفى فقد زرعت نصف رأسي قطنًا، وأريد أن أزرع النصف الآخر كتانًا".

أرجو لكم حلاقةً ألطف وأنعم من صديقنا.

دمتم بكل خير

أ.أيمن جبارة